التخطيط العمرانى فى مصر القديمة

للدكتور محمد أبو المحاسن عصفور

من المعروف أن مظاهر الحضارة المختلفة تنتج عن تفاعل الانسان وبيئته ، ولذا كان من البديهى أن يخضع المصرى القديم — فى مختلف نواحى نشاطه — لاتجاهات معينة لم يحد عنها إلا فى القليل النادر .

فنهر النيل — وهو أهم ظاهرة فى حياته — يمتد من الجنوب إلى الشمال فى وادى طويل ضيق ينتهى إلى دلتا فسيحة نسبيا قبل أن يصب فى البحر المتوسط ، وهكذا نجد أن مصر شملت قسمين مختلفين : الوادى الضيق فى الجنوب وهو المعروف بمصر العليا والدلتا الفسيحة فى الشمال وهى المعروفة باسم مصر السفلى وتحد الصحارى الشرقية والغربية الواسعة مصر بأكملها من الجانبين ولكنها تحف بالوادى الضيق فى الجنوب بحيث يمكن للانسان أن يقف باحدى قدميه على الأرض المنزرعة وبالأخرى على الأرض الصحراوية فالانتقال بينهما هنا فجائى لاتدرج فيه . وتلى الصحارى فى هذا القسم شرقا وغربا سلاسل من التلال قليلة الارتفاع تمتد بطول الوادى تقريبا وإن كانت فى بعض الأحيان تقترب من الوادى بل وتغير عليه بحيث تصبح مشرفة على النهر تماماً — أما فى الدلتا فان الوادى كان متسعاً ولكن كانت المستنقعات الكثيرة تتخلله ولذا كانت الأراضى الزراعية فيها أقل كثيراً مما هى عليه الآن .

وقد جاهد المصرى فى توصيل مياه النهر وفيضانه إلى كل شبر يمكن استغلاله فى الزراعة ، ومع ذلك فانه كان يخشى خطر الفيضان ويتجنب الاقامة فى البقاع التى يكتسحها أى أن الحاجة إلى أقل مساحة من الأرض الطمية الثمينة والرغبة فى تحاشى مياه الفيضان كانت تتحكم فى مواقع المدن ومراكز تجمع السكان حيث نشأت على حافة الصحراء كلما أمكن ذلك —

ومن جهة أخرى كانت بعض الاعتبارات الأخرى (من سياسية وعسكرية ... الخ) سببا فى نشأة عدد من المدن فى الوادى نفسه بين الأراضى الزراعية . وكان من جراء ارتفاع منسوب الوادى باضطراد أن دفنت عدة مراكز عمران تحت طمى النيل وانتقل العمران إلى أماكن أخرى بينما ظلت مراكز أخرى عامرة بالسكان بصفة دائمة فكانت المنازل الجديدة تبنى على أنقاض القديم منها حتى أصبحت المدن قائمة على تلال مرتفعة ولابد أن كثيراً من القرى والمدن المصرية الحالية قد بنيت على أنقاض محلات قديمة — وهكذا نجد أن المدن القديمة كانت تواجه دائما مشكلة الفضاء المناسب كى تمتد فى مساحتها أو تنتقل خارج حدودها وربما كان التغلب على هذه المشكلة ميسوراً بعض الشىء فى مصر العليا حيث يكون التوسع فى اتجاه الصحراء أو الهضاب المجاورة أما فى الدلتا فان المستنقعات كانت تجعل مثل هذا الحل متعذرا ولذا نجد النصوص المصرية تشير إلى القرى فى مصر العليا بينما هى تشير فى الوقت نفسه إلى المدن المرتفعة فى مصر السفلى .

ولاشك فى أن بقاء مخلفات المدن القديمة والعثور على آثارها كان يحددهما عاملان : طبيعة مواد البناء المستخدمة فيها والظروف الطبيعية للأقليم الذى وجدت فيه ولما كانت نظرة المصرى التقليدية إلى المنزل تتلخص فى اعتباره مقراً مؤقتا غير دائم (أما المقر الدائم فى نظر المصرى فإنه كان مقبرته) ونظراً لأن اللبن كان أرخص وأيسر منالا من الحجر فان منازل الأفراد بل وقصور الملوك كانت تبنى من اللبن وانحصر استعمال الحجر فى الأعتاب وأفاريز الأبواب وقواعد الأعمدة أما الخشب فقد اقتصر استعماله على الأبواب والأعمدة والأسقف — ومثل هذه المنازل كانت حياتها محدودة بالطبع ولذا كان لابد من تجديدها بين حين وآخر إذا أنها كانت تتأثر بشدة الأمطار أو لمجرد التقادم ، أضف إلى ذلك أن الخشب والحجر كانا نادرين ثمينين فحينما يترك أحد المنازل أو تهجر إحدى المدن ولو مؤقتا فان هذه المواد النادرة كانت أول ماينتزع منها ويعاد استخدامها مما يؤدى إلى الاسراع بانهيار هذه المبانى وقد يؤدى استخدام لبن تلك المبانى ومخلفاتها

فى تسميد الأراضى الزراعية إلى زوالها نهائيا — وهكذا نجد أن معظم المدن المصرية القديمة قد اختفت تحت طمى النيل أودفنت تحت المساكن المتعاقبة فى نفس المكان أو أزيلت بسبب حصول الأهالى المجاورين لها على مواد مبانيها المختلفة ولذا فإنه — باستثناء نماذج قليلة — للمنازل وبعض نقوش المقابر التى تصورها — لايوجد لدينا من المصادر عن هذه المبانى والمدن سوى آثار بعض قرى العمال وأنقاض المدينة التى بناها اخناتون «اخيتاتون = تل العمارنة الحالية» وعدد من الحصون فى مصر والنوبة .

ولا شك فى أن أول ما يتبادر إلى ذهن الانسان عندما يحاول اتخاذ مأوى له هو أن يحيط مستقره بسياج بيضاوى أو مستدير من المواد الخفيفة التى فى متناول يده أى أن الملجأ الذى اتخذه لم يكن أكثر من كوخ أو عروة بسيطة من البوص أو الحصير تظل بالطمى فى كثير من الأحيان .

وبتقدم الزمن أو تبعاً لمقتضيات البيئة أصبحت بعض هذه الأكواخ تعمق جدرانها فى باطن الأرض ففى مرمدة الواقعة فى شمال غرب الدلتا وفى العمرى القريبة من حلوان عثر على أكواخ كانت تتكون من آبار غير عميقة مبطنة بحصر تمتد بين أعمدة رقيقة وتبرز قليلا فوق سطح الأرض وكان الدفن إما تحت أرضية هذه الأكواخ أو فى خارجها (بينما كانت الجبانات منفصلة عن مناطق السكنى فى مصر العليا).

وهنا نجد مايبرر الفكرة المصرية القديمةعن المقبرة إذ أنها تعتبر منزلا أبديا ولذا كان تخطيط المقبرة والمسكن واحداً فأقدمها كان مستديراً أو بيضيا ولعل اختراع اللبن فى نقادة الثانية هو الذى أدى إلى استقامة جدرانها، وقد عثر على نموذج صغير من هذا العصر ذو سقف مسطح يعلوه فى الغالب حائط نصفى وبه أربعة نوافذ موزعة فى جدارين متقابلين وكان الباب على جانب من المحور . (١) .

وتشغل مرمدة مساحة تقدر ٦٠٠×٤٠٠ ياردة وقد اصطفت بعض الأكواخ فى أحد أجزائها فى صفين يفصلهما شارع ضيق مما يوحى بوجود شىء من التنظيم الاجتماعى ووجود فكرة ولوبدائية عن تخطيط المدن —

وقد وجدت كذلك محلة من عصر ماقبل الأسرات المتأخر فى المعادى كانت تمتد نحو ميل مما يدل على أن مدن مصر السفلى كانت أكبر من مدن الصعيد .

هذا و قد عثر من عصر ماقبل الأسرات أيضا على آثار مدينة فى هيراكونبوليس وإن كانت لم تكتشف جيداً إلا أنها كانت لاتقل عن $\frac{3}{4} \times \frac{1}{4}$ ميل وقد أحيطت بسور من اللبن . ولانبعد كثيراً عن الصواب إذا ماقلنا بأن أقدم المدن المصرية كانت تحاط بنوع من السياج ثم أصبحت تحاط بسور من اللبن كما يستدل على ذلك من قطعة لأحد النماذج التى عثر عليها فى ديوسبوليس وهى تبين رجلين يطلان من فوق حائط منخفض (٢) . كما أن المدن فى النقوش كانت تمثل بشكل دائرى أو بيضاوى يحيطه سور قوى من الواضح أنه كان من اللبن وكثيراً ماكان يزود بمداخل ومخارج (٣) كذلك كانت العلامة الهيروغليفية الدالة على مدينة ترسم فى شكل سور دائرى مقسم إلى أربعة أقسام بطريقين متقاطعين .

وإذا جاز لنا أن نستدل من جبانات الأهرام على تخطيط مدن الدولة القديمة ونظامها أو على الأقل على الأحياء التى كانت قريبة من البلاط فمن الواضح أنها كانت دقيقة التخطيط إذ أن النبلاء أرادوا عند وفاتهم أن تكون مقابرهم بالقرب من المقر الأخير لسيدهم لأنهم إنما رغبوا فى أن تكون حياتهم الآخرة شبيهة بحياتهم الدنيا حيث كانوا يعيشون بالقرب من القصر ويبدو هذا بوضوح فى منطقة الجيزة حيث توجد مدن للموتى بالفعل حول الأهرام ، إذ نجد الهرم قائما و من حوله تصطف مصاطب النبلاء فى صفوف منتظمة تخترقها شوارع طولية وعرضية (٤) . وهى فى شكلها الخارجى أشبه بالمنازل وتتفاوت فى مظهرها حسب رتبة أصحابها . أى أنه من العسير أن نتجنب استنتاج أن مدن الأهرام تعكس إلى درجة كبيرة مظهر العاصمة أو الجزء المجاور للقصر الملكى وإن كان من المرجح أن تخطيط مدن الأهرام يجعل مثل هذه المدينة مثالية فى ترتيبها ونظامها الدقيق — ومن مقابر الأسرة الثانية وبعض آثار نادرة لمساكن حقيرة صغيرة من

عهد الأسرة الثالثة يمكن أن نتبين أن منازل الدولة القديمة على العموم كانت تختلف فى عدد حجراتها على حسب مكانة أصحابها ومنها ما كان يحتوى على دورات للمياه وحمام . كما نتبين من نقوش بعض المقابر المتأخرة أن طائفة من المنازل كانت تشغل مساحات واسعة وبها عدد من المكاتب والمخازن ومزودة ببوائك مستعرضة وحجرات ذات أعمدة أى أن أصحابها كانوا من ذوى المراكز المرموقة .

ولابد أن المدن كانت تتخذ شكلا عاما منذ عصور سحيقة . ولكن دوام التطور داخل الإطار العام للمدينة لم يخضع لرقابة دقيقة بل كثيراً ماكان يتم كيفما اتفق ومهما وضع من تخطيط للمدينة فان مرور الزمن كان كفيلا بالتخلى عن هذا التخطيط ولم يشذ عن ذلك إلا المدن التى كانت تبنى بواسطة الحكومة . ولتحقيق غرض معين مثل قرى العمال والقلاع والعواصم الجديدة كالعاصمة التى بناها اخناتون :

ومع أن قرى العمال تلقى بعض الضوء على تخطيط المدن إلاأنها كانت تبنى لسد الحاجة إلى إسكان الرجال اللازمين للمشروعات الضخمة وضمان الاشراف عليها وكثيراً ماكانت منعزلة عن بقية العالم — ونظراً لأنها كانت تبنى بصفة رسمية ولتحقيق غرض معين فإن الاتجاه السائد فى تخطيطها كان يجعلها هندسية الشكل — وأقدم أمثلة لهذا النوع من القرى يوجد حول هرم خفرع فى الجيزة . وهى أشبه بسلسلة من الثكنات منها بالمدينة . إذ عثر على نحو ١١١ حجرة طويلة خالية تماما من أى جهاز أو أثاث وكل منها تتسع لنحو ٥٠ رجلا . (٥)

ومع أنه لم يتم الكشف عن كل أجزاء قرية العمال فى كاهون التى شيدت عند بناء هرم سنوسرت الثانى فى الدولة الوسطى«الأسرة الثانية عشر» فان الجزء الذى تم الكشف عنه يبين أن هذه المدينة كانت مسورة بسور مربع وكانت تنقسم إلى قسمين غير متساويين أكبرهما يتألف من مساكن كبار الموظفين إذ وجدت ٩ أو ١٠ منازل كبيرة فى شمال المدينة كما وجد

بناء ضخم فى ركنها الشمالى الغربى يحتمل أنه كان قصر المحافظ. كما يحتوى هذا القسم أيضا على منازل متواضعة لصغار الموظفين — أما القسم الأصغر من المدينة فيحتوى على مساكن للعمال وهذه كانت صغيرة متزاحمة كل اثنين منها يتصلان فى الخلف وبهذا القسم ١١ شارعا على الأقل أما المنازل الكبيرة التى من القسم الأول فعقدة التخطيط ينقسم كل منها إلى أربعة أقسام : (أ) مسكن أصحاب الدار ويمكن الوصول اليه عن طريق فناء مكشوف وهو يتجه نحو الشمال (ب) حجرات الحريم (ج) ملحقات الخدم والمطبخ (د) سلسلة كبيرة من الدواوين والمخازن . كذلك كانت توجد حجرة للضيوف أحيانا . وأحد هذه المنازل الكبيرة كان يشغل مساحة تعادل المساحة التى يحتلها ٢٥ منزلا من منازل العمال .

و قد ألحقت بعاصمة اخناتون «تل العمارنة» قرية للعمال (٦) مثل قرية كاهون وهى تنقسم إلى قسمين متساويين أيضا ولكنها تختلف عنها فى أن هذا التقسيم لم يقصد به فصل الطبقات إذ أن كل المنازل متشابهة فيما عدا منزل قائد المدينة فى الركن الجنوبى الغربى وبالقرية خمسة شوارع تمتد من الشمال إلى الجنوب . وفى القسم الأصغر توجد كلها على الشارع الوحيد ولكنها مع ذلك لم تكن متقابلة حتى لا يرى سكان أحد المنازل مافى داخل المنزل المقابل على الشارع . أما منازل القسم الأكبر فتطل كلها على الغرب ولكل منها أربعة حجرات وصالة خارجية . وحجرة داخلية بها عمود . وفى خلف المنزل توجد حجرة النوم والمطبخ الذى تخرج منه سلالم تؤدى إلى السطح وبعض المنازل كانت تحتوى على أماكن لحفظ الماشية مما يوحى بأن السكان كانوا يحتفظون بحيواناتهم داخل منازلهم — على أن يلاحظ بأنه لم يكن هناك مورد ماء داخلى أى أن المياه كانت تجلب إلى هذه المساكن من النهر من بعد بضعة أميال — ورغم أن هذه المنازل كانت أحسن من منازل الأحياء الحقيرة فى العاصمة إلا أن سكانها كانوا منعزلين

تماما ويحرسون فى الليل مما يدل على أنهم كانوا من عمال السخرة أو من الموضوعين تحت الرقابة .

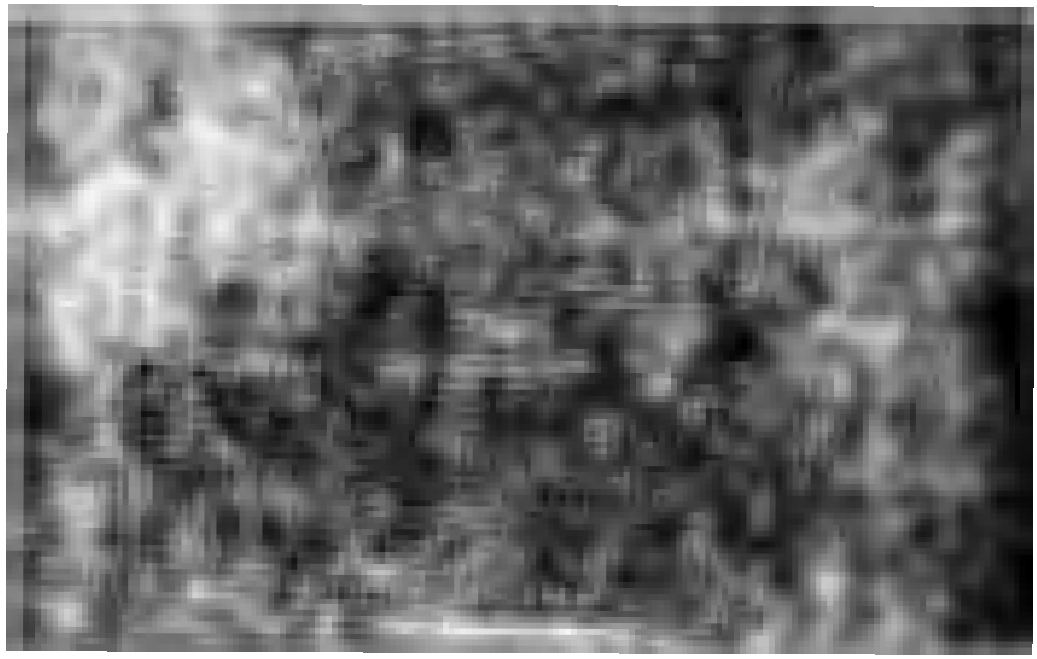

شكل (١)

قرية دير المدينة

(أ) كما تبدو فى أواخر عهد الأسرة الثامنة عشر

(ب) كما تبدو فى عهد الأسرتين الثامنة عشر والعشرين نقلا عن كتاب :

Bruyère, Fouilles de Deir el Medineh, Pls.VI &VII.

وأغرب قرى العمال فى مصر كلها قرية دير المدينة (شكل ١) على الضفة الغربية للأقصر وهى تقع فى وادى منعزل جدب محصور بين قرنة مرعى والتلال المتطرفة جنوب هضبة طيبة وقد ظلت مسكونة بصفة دائمة نحو ٤٠٠ سنة وكان تشييدها من أجل إسكان الرجال الذين كانوا يعملون فى بناء المقابر الملكية ونظراً لبعدها عن مكان العمل فأنه كان من عادة أهلها ألا يعودوا يومياً إلى منازلهم ولذا قاموا ببناء أكواخ من الحجر الغشيم فى الطريق المشرف على وادى الملوك يقضون فيها معظم أوقاتهم – ومع

هذا فأن القرية الأصلية كانت محاطة بسور مشيد من اللبن ويخترقها شارع وحيد ضيق على إمتداد الممر المؤدى إلى الوادى وكانت المنازل طويلة ضيقة تنفتح على الشارع — وقد اتسعت هذه القرية فامتد سورها بعض الشيء بل وشيدت بعض المنازل خارج هذا السور أيضاً ولم يصبح هذا السور للدفاع أو الرقابة بل يبدو أنه أصبح لفصل الطبقات التى تألف منها السكان فكان الأرستقراطيون يسكنون فى داخلها أما فى خارج السور فكان يسكن من هم دون ذلك ولا يحتفظ بالحيوانات فى المنازل التى داخل السور أما تلك التى فى الخارج فكانت تحتفظ بحيواناتها — ويتصل منازل هذه القرية بعضها بالبعض وكانت طويلة ضيقة لا يضيئها سوى باب الشارع ومنافذ التهوية فى السقف ويتألف المنزل عادة من صالة خارجية وحجرة داخلية بها أعمدة فيها ايوان « متكأ » ومن حجرة نوم ومطبخ غير مسقوف به سلالم تؤدى إلى السطح ولم يكن هناك أى مورد فى القرية بل كان هناك خزان خارج البوابة الخارجية تكلف فئة خاصة بجلب الماء على ظهور الحمير لمائة ويحرسه حرس خاص وكانت النساء تحصل على مياهها منه حيث تحفظها فى أوانى كبيرة عند مداخل مساكنهن ومع أن القرية ظلت عامرة نحو ٤٠٠ سنة إلا أن مستوى أرضها لم يرتفع مما يدل على أن المنازل كان يعاد بناؤها على نفس أساسها السابق ولذا نستنتج وجود نوع من التنظيم والرقابة على البناء والتخطيط كذلك تشير نصوص قطعتين من اللخاف إلى أن اختيار المسكن لم يكن ليتم بحرية تامة وكانت هناك دورات تفتيشية على القرية كما حصر حفر المقابر فى الهضبة التى تقع فى غربها وشيدت المقاصير فى شمالها كما وجدت مراكز للبوليس فى كلتا نهايتها .

كذلك تختلف مدينة اخناتون التى بناها واتخذها عاصمة جديدة له عن بقية المدن المصرية فى أنها بنيت دفعة واحدة وفق تخطيط موضوع مدروس إذ أنه حينما وجد معارضة شديدة فى طيبة للدين الذى نادى به اختار موقعاً بكراً أسس فيه هذه المدينة الجديدة وسماها أخيتاتون . وقد انتقل اليها فيما بين السنة الخامسة والسادسة من حكمه حيث قضى بها بقية حكمه الذى بلغ سبعة عشرة عاماً وبعد فترة تتراوح بين سنتين وأربعة

من وفائه هجرت هذه المدينة نهائياً مما أدى إلى بقاء كثير من آثارها — وهذه المدينة بنيت على الضفة الشرقية للنيل فى منطقة تتراجع فيها الهضبة الشرقية بحيث تترك بينها وبين النهر منخفضاً فى شكل نصف دائرى أقصى طول له ٧ أميال بينما يتراوح أكثر عرض له بين ميلين وثلاثة أميال وتقترب الهضبة فى الشمال والجنوب من حافة النهر بحيث تصبح المدينة مقفلة تماماً (شكل ٢) وهذا يفسر سبب عدم وجود سور للمدينة . وكانت المقابر تنحت فى صخور سلاسل تمتد شمال وجنوب أحد الوديان الجافة وهو ينتهى على بعد بضعة أميال من النهر — وتخترق المدينة ثلاثة طرق من الجنوب إلى الشمال تكاد تكون موازية لاتجاه النهر وقد سميت هذه الطرق بأسماء أطلقها عليها المكتشفون فأقربها إلى النهر عرف باسم الطريق الملكى يليه إلى الشرق شارع الكاهن الأعظم ثم يلى ذلك أيضاً الطريق الشرقى .

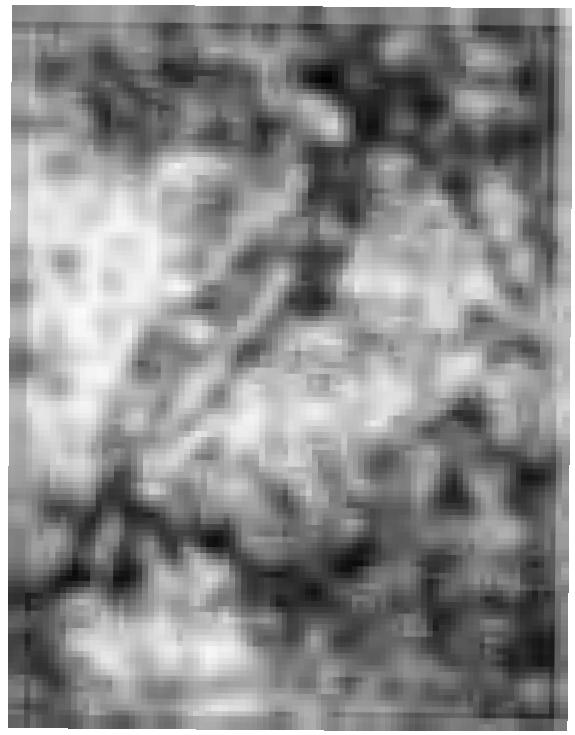

شكل (٢)
موقع تل العمارنة

وفيما بين الطريق الملكي والنهر بنى عدد من القصور والمنشآت الحكومية هى من الجنوب إلى الشمال : استراحة ملكية «مارو آتن» يليها شمالا معبد النهر ثم المقر الرسمي للفرعون ثم القصر الشمالى الذى ألحقت به حديقة الحيوان ويلى ذلك قصر آخر ومن المحتمل أن مبانى رسمية أخرى بنيت على امتداد النهر ولكنها اختفت تحت الأرض المزروعة حالياً .

وقد قسمت المدينة إلى قطاعات واضحة . ففى الجنوب يقع القطاع الجنوبى الذى يقسمه وادى غير عميق . ومن المحتمل أنه تطور فى الوقت الذى هجرت فيه العاصمة مع أنه كان مقر كبار الموظفين ورجال الحاشية إذ وجد فيه منزل الوزير ومنازل بعض الشخصيات الهامة ولم يخل الأمر بالطبع من وجود منازل أخرى وضيعة كما يبدو أن مركزاً صناعياً كان قائماً به إذ أن مصنع المثال الذى وجدت به رأس نفرتيتى الشهيرة كان فى شمال الوادى وإلى الشمال منه أيضاً وجد مصنع للزجاج (بالقرب من القصر الملكى) وفى شمال هذا القطاع الجنوبى يقع الحى الأوسط من المدينة وفيه يوجد القصر الملكى والمعبد ومكاتب الحكومة ، وقد خطط هذا الحى بدقة تامة وعن قصد كوحدة متصلة وتشير اليه النصوص باسم خاص «آتون ممز فى الأعياد» كما كان يعرف كذلك باسم « الجزيرة » وكان حده الغربى ينتهى بالمقر الرسمى للفرعون الذى كان يطل على الطريق الملكى وقد ضاع أكثر من نصف هذا القصر تحت الأرض المزروعة الآن — ويتسع الطريق الملكى فى هذه البقعة إلى درجة تسمح بابراز أبهة الموكب الملكى وتجعل فى الامكان ظهور كافة المشتركين فيه . أما الحد الشمالى لهذا الحى فيكونه المعبد العظيم المقام داخل سور يشغل مساحة قدرها ٢٥٠٨٠٠ ياردة — وفى مواجهة الطرف الجنوبى للقصر توجد المخصصات الملكية التى تتألف من المقصورة الملكية والقصر الخاص الذى يسكنه الملك وحديقة ومخازن ويلى ذلك جنوباً مجموعة من المخازن والحجرات المخصصة للكهنة الملحقين بالقصور الملكية . وتتصل هذه الأجزاء بالقصر عن طريق قنطرة من ثلاثة أقسام تعلو الطريق الملكى و القسم الأوسط منها به حجرة صغيرة يشرف منها الملك على رعاياه ويمنح المكافآت إلى المخلصين من حاشيته —

وفيما بين المخصصات الملكية والمعبد الكبير توجد مجموعتان متميزتان من المخازن والحجرات المخصصة لأعداد الطعام يبدو أن الجنوبية منها كانت خاصة بالقصر بينما كانت الشمالية مخصصة للمعبد .

وتقع دواوين الحكومة إلى شرق هذه المبانى ومعظمها لم يمكن التعرف على المصالح التى كانت تشغلها ولكن أمكن معرفة بعض المصالح الأخرى من النقوش ومن هذه ديوان السجلات أو ديوان الخارجية حيث وجدت خطابات تل العمارنة الشهيرة وهى عبارة عن المراسلات الدبلوماسية التى تبودلت فى ذلك الوقت . ومن خلف ديوان السجلات يقع «منزل الحياة» الذى أطلق عليه المكتشفون « اسم الجامعة » ولكنه فى واقع الأمر كان بناء مزدوجاً يتألف من مدرسة ودار للنسخ . وإلى شرق هذا الأخير توجد مجموعة من المبانى ربما كانت ديوانا للأشغال يتألف من أقسام خصص كل منها لنوع معين من مصالح الحكومة . وإلى جنوب تلك الأبنية توجد صفوف طويلة من الحجرات والداوين لا شك فى أنها كانت للكتبة والموظفين — وأخيراً وعند حافة الصحراء فى شرق كل تلك المبانى توجد الثكنات العسكرية وأقسام البوليس التى زودت بصفوف طويلة من الاصطبلات وزعت بحيث يمكن للفرسان أن يسرعوا منها — عن طريق الصحراء المنبسطة — مناطق الخطر ، وعلى بعد نحو ٨٠٠ ياردة من هذا الحى الأوسط يوجد جزء عرف باسم الضاحية ويقسم وادى مماثل للوادى الذى يخترق القطاع الجنوبى — وهذه الضاحية تحتوى على منازل قليلة ضيقة ولذا يظن أنها منازل للطبقة الوسطى وأن المركز التجارى كان فى هذا الحى ولا يبعد أن تكون أرصفة الميناء النهرية قد بنيت فى مواجهة الوادى الذى يخترق هذا المكان وفضلا عن ذلك فقد وجدت بقعتان رديئتان من المنازل الشعبية لا تزيد كثيراً عن أكواخ متزاحمة — ويبدو أن هذه الضاحية بدأت فى الانتعاش منذ حوالى منتصف حكم اخناتون وتطورت عندما هجرت العمارنة .

وهذا القسم الشمالى من مدينة اخناتون كان ينتهى فى طرفه الشمالى باقتراب الهضبة إلى النهر حيث وجد بناء مدرج مشرف يرجح أنه كان للجمارك أو للحراسة ومن المحتمل أن بناء مماثلا كان يوجد فى أقصى جنوب المدينة أيضاً — وقد وزعت المبانى فى هذه الضاحية بحيث كانت المبانى الكبيرة جداً قريبة من القصر وهى أقرب لأن تكون دواوين الحكومة منها إلى المنازل .

ومع أن الطرق الثلاثة الرئيسية قد حددت الشكل العام للمدينة الا أن عددا من الشوارع الجانبية كان يخترق المدينة كذلك وهذه كانت غالباً متعامدة مع الشوارع الرئيسية . ولم تكن هذه الشوارع مرصوفة أو مبلطة بل اكتفى بتسويتها حيث أزيلت الصخور البارزة ونظفت من الحصى ولم يوجد نظام للتصريف مما يوحى بأن النظام الصحى كان بسيطاً وأن

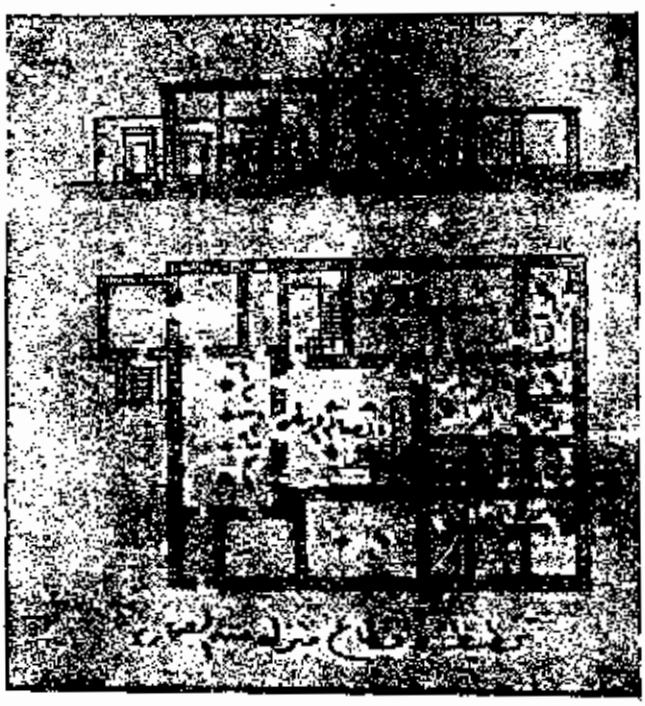

شكل (٢)
تخطيط وقطاع منزل من المارنة

مياه الحمامات كانت تصرف فى باطن الأرض أما المخلفات والبقايا فقد ألقيت فى آبار أو كانت تكوم فيما وراء المنازل وكلما تراكمت سويت هذه الأكوام أو ملئت بها الآبار أو أحرقت — وكان يبنى من فوقها عند ازدياد المدينة فى الحجم — ولم توجد عمائر مرتفعة أو مجمعات ويبدو أن أغنى الناس اختاروا مواقع منازلهم على امتداد الشوارع الرئيسية . أما الأقل ثراء فقد بنوا فى الأماكن الخالية خلف منازل الطائفة الأولى بينما حشرت منازل الفقراء فى الأماكن الملائمة التى أمكن الحصول عليها مع محاولة يسيرة للمحافظة على النظام وهكذا وجدت كل طرز المبانى فى كافة الأحياء ولم يشذ عن ذلك الا الحى الأوسط من المدينة .

شكل (٤)
نموذج لمنزل من المهارنة

وقد أمكن استنتاج نظام المنزل المعتاد للاشراف بصفة عامة (أنظر شكلى ٣ ، ٤) فهو عبارة عن منزل جيد التخطيط من طابق واحد يشغل مساحة مربعة على العموم ويتجه دخول الشمال أو الغرب والبناء الرئيسى فى المنزل يشغله صاحب الدار وعائلته أما المطبخ وحجرات الخدم والاصطبلات .. الخ فتوضع فى العادة تحت الريح أى نحو الجنوب أو الشرق . ويتلخص

المبنى الرئيسى فى حجرة فسيحة مربعة بها عمودين أو أربعة ويرتفع سقفها عن بقية المنزل ويستغل الفارق بين السقفين فى نوافذ للاضاءة ويؤدى إلى هذه الصالة صالة أخرى ذات أعمدة تقع إلى شمالها أو غربها وتوجد أمامها ردهة أمامية تفصلها عن البوابة التى يؤدى اليها درج بسيط — وخلف الحجرة الوسطى توجد صالة داخلية تعرف باسم حجرة النساء وتلى هذه حجرات العائلة والجناح المخصص لسيد الدار وكان يحتوى على حجرة للنوم وحمام ودورة للمياه . وكثيراً ما كانت توجد حجرات مستقلة يبدو أنها كانت للضيوف وفى أعلى سطح المنزل توجد شرفة جيدة التهوية فى الجهة الشمالية أو الغربية ويحيط بالمنزل وأفنيته سور من اللبن وكثيراً ما كان يزود بحديقة زرعت أشجارها فى حفر ملئت بطمى النيل كما أن بعض المنازل كانت تحتوى على بركة صناعية ومقصورة خاصة للعبادة ومساكن للخدم ومخازن وبئر وصوامع للغلال فضلا عن المطبخ والاصطبلات .

ومع أن العمارة كانت تتميز بطابع فريد دون شك الا أنها كانت فى مساكنها متمشية مع التقاليد إذ وجدت نماذج قليلة لمنازل فى مصر والسودان لها نفس الطابع العام وهنا يجب أن نذكر بأن العمارة بنيت فى أرض صحراوية بكر أى أن المساحة الكافية لامتداد مبانيها واتساعها كانت مكفولة وهذا بغاير الحال فى طيبة ومنف مثلا لأن هذه المدن المكتظة لم تكن مساكن الطابق الواحد عملية فيها ولذا استعاض الأغنياء عن امتداد منازلهم فى المساحة بجعلها من بضعة طوابق ، ومع هذا فأن الوحدات التى كان يتألف منها منزل العمارنة والتى وزعت على مساحة شاسعة كانت ممثلة فى منازل المدن الأخرى ولكنها هنا كانت بعضها فوق بعض (أنظر شكل٥) فالمطابخ وملحقات الخدم والمكاتب فى الطابق الأرضى . أما الطوابق العليا فكانت لأهل البيت وعلى السطح توجد صوامع غلال صغيرة وبعض المخازن وقد وجد نقش فى مقبرة بطيبة يبين مثل هذا المنزل — ولم يكن هذا الطراز من المنازل مستحدثاً من عهد الدولة

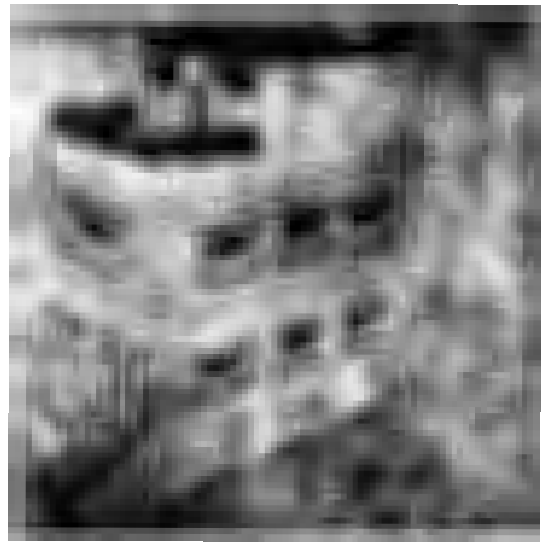

شكل (٥)

نموذج لمنزل من ثلاثة طوابق مأخوذ عن : Revue d'Egyptologie III,fig.3

الحديثة ولكن يبدو أنه كان شائعاً منذ عهد الدولة الوسطى على الأقل حيث وجد نموذج لمنزل من ثلاثة طوابق فى أحد مقابر الأسرة الثانية عشر لنبيل فى البرشة كما أن النماذج الأخرى «ومنازل الروح» التى وجدت من هذا العصر تدل على أن المدن فى عصر الدولة الوسطى كانت تختلف فى طرازها : من مأوى بدائى إلى منزل ذو طابق واحد إلى منزل متعدد الطوابق كلها وجدت جنباً إلى جنب بل وهناك من الدلائل ما يشير إلى وجود نظام المبانى المجمعة والمساكن المشتركة حينما ازداد عدد السكان .

وما دامت الحالة فى هذه المدن على هذا النحو من التنظيم فلا بد وأنه كان هناك إشراف من نوع ما على مرافق المدينة وإن كنا لا نملك دليلا كافياً على وجود رقابة على المبانى وتقسيم المدن إلى قطاعات بل ولا توجد إشارة فى النصوص إلى الخدمات المرفقية التى نعهدها فى العصر الحديث ولكن لابد وأنه كانت هناك طوائف من جامعى القمامة وحملة المياه وغيرهم — ومن المؤكد أن بعض المنازعات قد نشأت بين طوائف الملاك حول

تشريعات المبانى ويدلنا على ذلك ما وجد من نصوص ديموطيقية متأخرة(٧) تتعلق بالإمكان وهى عبارة عن عقود قانونية بين الأفراد وإن كانت لا تشير إلى مواد تشريعية ولكن المهم أنها تشير إلى « الجدار المشترك » أو « حائط الجماعة » كما تشير إلى منافذ الضوء التى لا يجب على الجار اغلاقها عند البناء ففى بردية بالمتحف البريطانى اتفاق بين إمرأة ورجل سمح فيها الرجل بأنْ تبنى السيدة منزلا يستند إلى جدار منزله الغربى وفى مقابل ذلك تحافظ على نوافذ الاضاءة المطلة على منزلها ولا تتعرض لسدها بالبناء وهذه الاشارة وأن كانت لا تشير إلى أى تشريع عن البناء ولكن من غير المحتمل أن الفراعنة قد أهملوا هذه الناحية .

وآخر مصدر لمعلوماتنا عن تخطيط المدن يمكن أن نستمده من القلاع المصرية وهناك من الدلائل ما يفيد بأنها عرفت منذ أقدم العصور فاكتشافات « يونكر » فى كوبانية لا تدع مجالا فى أن إليفانتين كانت مركزاً تجارياً وحصناً أمامياً (٨) فى نفس الوقت منذ عهد باكورة الأسرات وقد قام

شكل (٦)
قلعة السمنة مأخوذة من كتاب : Borchardt, Altäg.Festungen,Bl.6.

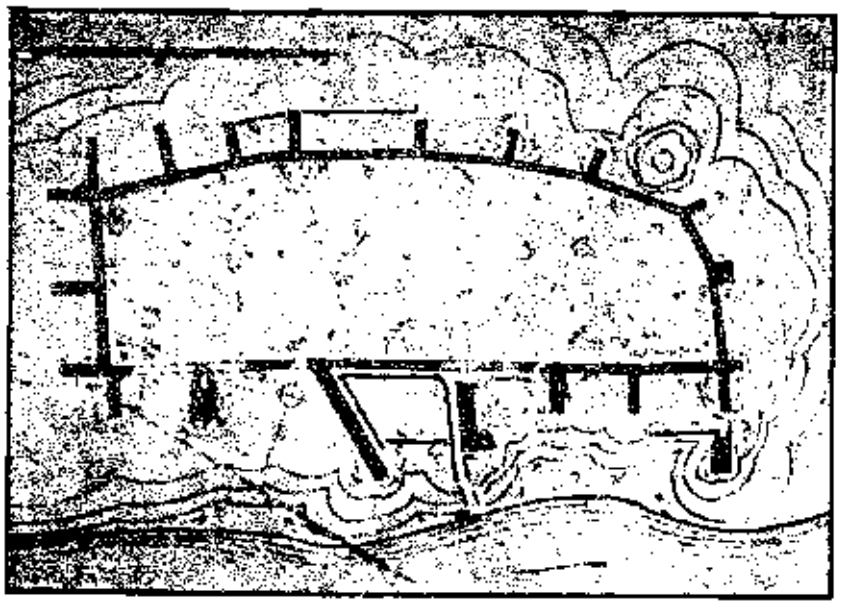

بتحصينها كذلك حوتى آخر ملوك الأسرة الثالثة (٩) — ولم يكن أقدم الحصون منتظم الشكل بالضرورة إذ أن هذه الحصون كانت تشيد فى مواقع ذات أهمية عسكرية ولذا كان لابد أن تتخذ شكلا يتمشى مع هيئة الأرض التى بنيت عليها وأشهر هذه الحصون والقلاع تلك التى بناها ملوك الدولة الوسطى فى النوبة وبعض القلاع التى بناها ملوك الدولة الحديثة وإن كانت هذه قد فقدت أهميتها بعد أن أصبح الأمن مستتباً فى ربوع تلك البلاد .

وكانت كل قلعة أشبه بمدينة حصينة إذ كانت تحتوى على معابد وتشغلها عدة مبانى تقوم فيها مصالح ودواوين مختلفة وبها عدد من المنازل وتخترقها بعض الشوارع — وقد قامت قلاع النوبة بدور مزدوج إذ أنها كانت تستخدم فى أغراض الدفاع من جهة وكمراكز تجارية من جهة أخرى — ويمكن تميز بين نوعين من القلاع : أحدهما هو ذلك الذى بنى فى الأراضى المنبسطة أو فى الوادى بالقرب من النهر وخاصة فى النوبة السفلى فيما بين الشلال

شكل (٧)

منظر جوى لموقع قلعة أورونارتى عن مجلة Kush العدد ٣ لوحة ١٤

ووادى حلفا وهذا النوع كان ذو شكل مستطيل على العموم ضلعاه الطوليان موازيان للنهر وهو مزود بالكثير من الأبراج فى الضلع المواجه للصحراء . أنظر مثلا قلعة الدبة (شكل ٦) — أما الطراز الثانى فيوجد فى اقليم الشلال الثانى بصفة خاصة وهو مشيد إما فوق هضاب صخرية تشرف على النهر أو فى جزر تعترض المجرى وهذا النوع وإن كان يميل إلى الاستطالة إلا أن شكله غير المتظم كانت تحدده طبيعة الأرض المقام عليها ولم تكن أبراجه على مسافات منتظمة بل توضع وفق الاحتياجات العسكرية والدفاعية

ومن القلاع الغريبة فى هذا الاقليم ما يتميز بجناح بارز طويل هو عبارة عن جدار قوى من اللبن يمتد من صميم القلعة فى موازاة النهر وربما كان ذلك لتسهيل تطويق المهاجمين (أنظر الأشكال ٧، ٨، ٩) .

وأهم عناصر الدفاع فى قلاع النوع الأول (قلاع الوادى) تنحصر فى ميل سورها الداخلى ووجود خندق جاف حوله وحائط خارجى منخفض تعلوه أبراج — أما قلاع النوع الثانى (قلاع الهضاب أو الجزر) فإن موقعها يجعل من المستحيل إحاطتها بخندق وهى تستغنى بمركزها المشرف على ماجاورها عن هذا العنصر لأن المهاجمين يكونون مكشوفين لسكانها . كذلك كانت هذه القلاع ذات سور واحد فى الغالب ولم يكن بها مورد ماء داخلى أو بئر وإنما كان يحصل على الماء عن طريق ممر منحدر إلى النهر طرفه السفلى تحت مستوى الماء حتى فى وقت انخفاض النيل وكان هذا الممر مسقوفاً بأحجار مسطحة تخفى على العيون وهكذا كان يمكن للحراس أن يحصلوا على الماء فى كل وقت .

ومن توزيع هذه القلاع نتبين أن ثمانية على الأقل كانت قائمة بين سمنة ووادى حلفا وهى مسافة لا تتجاوز ٦٠ كيلو متراً وهذا يبين أهمية المنطقة لأن الملاحة فى هذا الجزء من النيل متعذرة بسبب كثرة الجنادل وتصلح المنطقة الواقعة فيها هذه القلاع لبعض العمليات الخفية ولذا فإن بعض القلاع فى هذا الاقليم كانت على مرمى البصر من القلاع المجاورة وعلى ذلك فإن الحاجة للإحتفاظ بعدد كبير من الجنود فى كل قلعة كانت معدومة إذ أن جنود

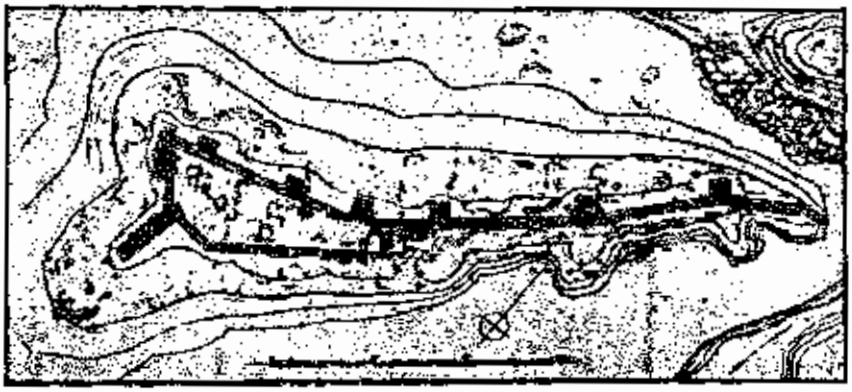

شكل (٨)
منظر لقلعه أورنارتى عن كتاب بورخاردت السابق لوحة ١٣

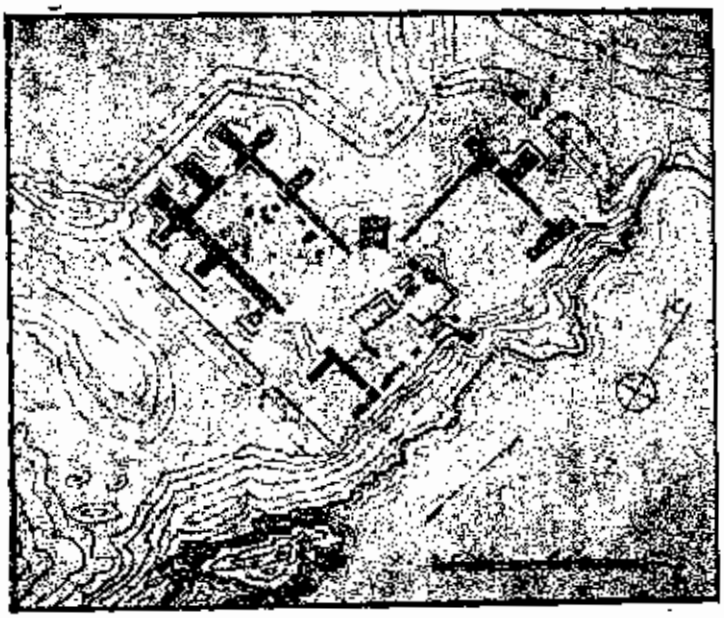

شكل (٩)
قلعة سمنة مأخوذة عن كتاب بورخاردت السابق لوحة (٩)

كل منها كانوا يساندون جنود القلاع الأخرى — وبما أن قلاع الوديان قد شيدت فى الأماكن المزدحمة بالسكان لحماية المرور فى النهر وحماية قوافل التجارة فإن بعض هذه القلاع كانت تأوى اليه أو تقيم بالقرب منه قوافل التجار عند اضطرارها لقضاء الليل فى المنطقة ومن أهم قلاع هذا النوع قلعتى أكور « وكوبان» حيث شيدتا عند مدخل وادى علاقى الذى كان يستخرج منه الذهب .

ولا بد من أن نلاحظ بأن الاتجاه العام فى كل هذه القلاع كان يميل إلى ترك مسافة كافية بين المنازل والمبانى من جهة وبين السور من جهة أخرى حتى يتاح للجنود أن يقوموا بعملياتهم العسكرية فى حرية وسرعة وكفاية .

ولا شك فى أنه كان على الدولة الحديثة وخاصة فى فترتها الأولى أن يبنوا قلاعاً جديدة فى المنطقة التى بعد الشلال الثانى على الأقل وأن يصلحوا أو يضيفوا إلى القلاع القديمة ولكن منذ منتصف الأسرة الثالثة عشر فقدت تلك القلاع قيمتها لهدوء الأحوال فى النوبة ودليلنا على ذلك أن المعابد كانت فى بادىء الأمر تبنى بالقرب منها أو فى داخل أسوارها لحماية ثروتها ولكنها أصبحت بعد ذلك تبنى بعيدة عنها — وبينما كانت قلاع الدولة الوسطى تشيد فى مناطق عسكرية فأن قلاع الدولة الحديثة بنيت فى سهول منبسطة لا تتحكم فى أى طريق نهرى أو برى ولا توجد فى مناطق موارد محلية غنية كما أن أبراجها وأسوارها لم تكن ملائمة للأغراض العسكرية بل كان يكتفى بمظهرها الجميل ونظامها ولا يوجد لها أى خندق أو جدار دفاعى عند قاعدة السور وليس لها منفذ للماء أو مورد مياه داخلى وبالطبع لم تكن مثل هذه القلاع لتخدم أغراضاً عسكرية أى أنها لم تكن قلاعاً بالمعنى الصحيح .

وما دمنا بصدد الحديث عن قلاع النوبة ومدنها الحصينة فلابد من أن نشير هنا إلى ما يعرف لدى الأثريين باسم حصن كرما التجارى وهو ذو نظام فريد إذ أنه يتميز عن الحصون التى ناقشناها بأنه مشيد فى سهل منبسط يبعد عن النهر بنحو كيلو مترين ويعرف محلياً باسم الدقوقة الغربية — ونظراً

لأنه شيد فى بقعة غير ملائمة بالنسبة للمصرى فى عصر بنائه فأن الآثار الباقية منه تدل على أنه عبارة عن محاكاة مقصودة وصناعية لطراز قلاع الهضاب المعروفة فى منطقة الشلال الثانى حيث أمكن الوصول إلى ذلك عن طريق بناء من اللبن يرتفع نحو ١٩ متراً توجد فوقه المساكن (لم يبق منه إلا الأجزاء السفلى فقط) وقد أحيط كل هذا البناء بحائط ضخم منخفض وكانت كل مبانى القلعة من لبن شبيه باللبن المستعمل فى مصر ووفق المقاييس المصرية .

ومن المعقول أن نستنتج — كما يرى « يونكر » — بأن هذا الحصن لم يكن قلعة بالمعنى الصحيح يمكنها محافظ يشرف بقواته على الاقليم المحيط به لأن الحدود المصرية كانت وقت بنائه تقع على بعد لا يقل عن ٢٥٠ كيلومترا إلى الشمال ولا توجد أية قلعة فى هذه المسافة وبعبارة أخرى فأن مثل هذا البناء المنعزل لا يمكن أن يؤدى وظيفة الحصن القوى أو أن يكون جزءاً من نظام الدفاع أو الحماية للمصالح المصرية فى هذا الإقليم ، والأرجح أنه لم يكن سوى مركز تجارى فحسب — ولا تعطينا الآثار الباقية منه شيء المعلومات عن تخطيط المساكن فى أعلاه أو فى داخله وهكذا لا يفيدنا كثيراً عن التخطيط العمرانى فى مصر القديمة .

من كل ما سبق يمكن أن نستنتج أن المصرى القديم كان يهدف فى تخطيطه العمرانى إلى تحقيق أغراض عملية إذ كان لا يلجأ إلى اقامة مسكنه فى الأراضى الزراعية التى يحرص على استغلالها فى الزراعة الا حينما تدعوه الضرورة لذلك — وفى بداية الأمر كان هذا المسكن بسيطاً ساذجاً لا يخرج عن كونه دروة بسيطة مستديرة أو بيضاوية ثم استقامت جدران هذا المسكن بعد أن عرف الانسان اللبن واستخدمه فى البناء — ومادام المسكن هو المأوى الدنيوى الزائل فلابأس من أن يظل اللبن مادة بنائه الأساسية ولذا لم يجد المصرى ما يبرر الاستعاضة عنه بالحجر وربما كان اللبن أيضاً أنسب مواد البناء فى البيئة المصرية التى يغلب فيها الجفاف والدفء —

وإذا ما تجمعت عدة وحدات سكنية فى بقعة ما فأنها كانت تحاط بسور وتشق فيها الطرقات بحيث يسهل الدفاع عنها واتصال أجزائها بعضها بالبعض ولم يخرج المصرى على هذه التقاليد حتى عند تخطيط مدينة كاملة دفعة واحدة اذ كان يعمل على اختيار البقعة الملائمة وحسن توزيع وحداتها المختلفة بحيث يسهل تصريف مختلف الشئون وتتسنى له دقة الاشراف عليها .